عادل إبراهيم علي حنزولي

علي ذوالكرش على الراس

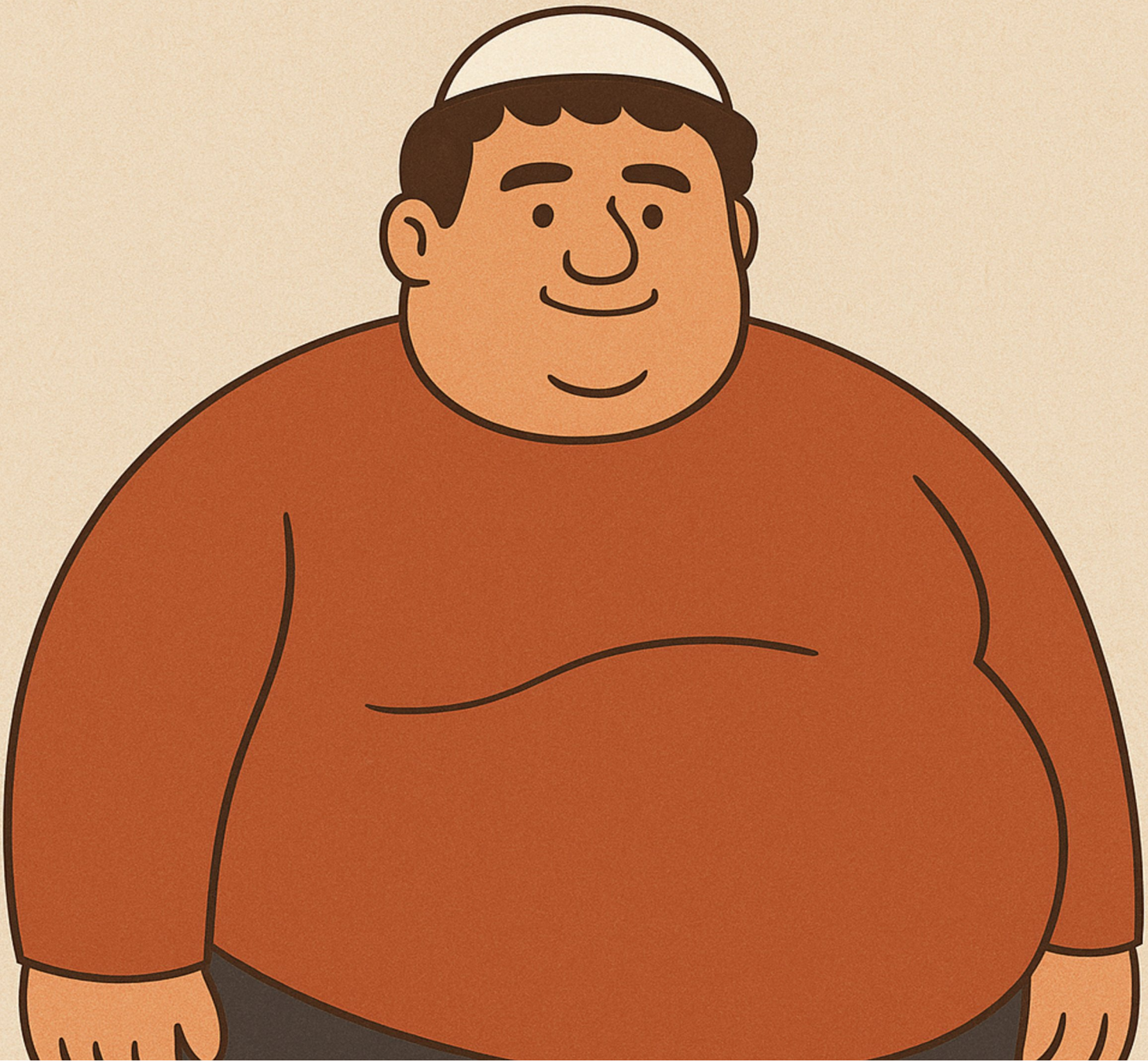

أجمل القصص التراثية

للناشئين

(2)

علي ذو الكرش على الرأس

عادل إبراهيم علي

بعيدا جدّا في الزمان، ذلك الذي لا يذكره الناس، حيث العجائب والغرائب، وحيث كلّ كائن ينطق بأمر الله. عاش ملك عظيم سعيد. فأمّا العظمة فلأنّه يبسط سلطانه على أراضٍ شاسعة بلا حصر يحكمها كلّها، وأمّا السعادة فلأنّ ذلك المُلك كلّه لم يساوي شيئا أمام فرحته بزوجته التي يحبّها من أعماق قلبه، وولده منها الذي أحبّه أكثر من نفسه وملكه وحياته. وكان الأمير ابنه ولدا نبيها ذكيّا، وفي وجهه ملاحة ونضارة وبهاء ونور من خالق النور، فكان آية في البهاء والحسن أبدعها ربّ هذا العالم القادر على كلّ شيء... وبلغ من حبّ الملك للأمير أن ابتاع من الهند مهرة جميلة ساحرة بثمن باهظ وأهداها للأمير الصغير في عيد ميلاده الرابع عشر، وكان الأمير في ذلك العمر قد تعلّم الفروسيّة والصيد والمبارزة بالسيف على عادة الملوك والأمراء فأتقنها وبرع فيها صغيرا. فلما رأى المهرة الجميلة أعجب بها أيّما إعجاب وفرح بها فرحا شديدا وأقبل عليها يلاعبها ويقبّل رأسها مداعبا غرّتها وهو يشكر والده شكرا عظيما. ثم امتطاها وراح يجول بها في المدينة والبراري ورحلات صيده حتى صارت لا تفارقه إلا متى حلّ موعد نومه... وظلّ على تلك العادة سنواتٍ دون أن يملّ أو تفتر فرحته، وكانت السعادة تُضلّلُ على عائلة الملك والمملكة كلّها...

فلمّا أن كان أحد الأيام مما هو مسطور رؤيته على الأنام، مرضت الملكة العطوفة الجميلة مرض الموت وجاء أجلها فانطلقت إلى جوار ربها. وحزنت المملكة الكبيرة كلها لموتها، وصار فؤاد الملك فارغا لأجل فراقها، وحزن عليها نحو سنة كاملة لا ينجلي عنه غمّ ولا يترك صحبته همّ. فعندئذ رقّ لحاله وزيره المقرّب فقال له:" كنت أحسب يا مولاي أنّ حزنك لفراق مليكتنا محدود منته لا يكاد يطول حتى تنسى أما وقد مضى نحو سنة على فراقها ولا أراه إلا يزداد ويتمدّد فإني أخشى أن يُهلكك هذا الحزن، وإنّه ليشقّ عليّ حالك، فقوتك هي قوة مملكتنا كلها وهناؤك هناؤها." قال الملك:" فما ترى من الأمر أن نصنع يا وزير؟" قال الوزير:" أمّا وقد طلبت مشورتي ونصحي فإني مشير عليك بأمر فيه خيرك وخيرنا وخير شعبنا، وإني مشير عليك بالزواج ثانية فيذهب همّك بامرأة تؤنسك وتسرّك وتنسيك لوعة الفراق بقربها."

"فمن اخترت لي يا وزير؟" سأل الملك وقد أعجبه اقتراح الوزير.

"إنّك لو رضيت يا مولاي زوجناك بنت الوالي حمدان." قال الوزير.

"وأيّ خير في زواج ملك مثلي بابنة رجل هو من خدّامي ومواليّ؟" سأل الملك مستغربا.

"فيه خير كثير يا مولاي وتاج ملوك الزمان، فإنّ البنت حسناء لبيبة فطنة بهيّة القدّ والقوام يليق بها الزواج من ملك أو أمير، وإنّ أبوها حاكم على أرضه وسيّد في قومه، وقومه غلاظ شداد لا يحكمهم حاكم إلا متى لان لهم، وأنت تعرف من سنوات أنّهم راغبون في الانفصال عن مملكتنا الشاسعة، ولا أرى طاقة بقتالهم إلا أن ندميهم جراحا ويدمونا أكثر، ومن صفات الملك الكيّس أن يحقن دم أهله ويميل إلى اللين حيث اللين ينفع فلا يضعف ولا تذهب ريحه. وإني أرى أنّك إن صاهرت واليك حمدان أغمدت سيف عصيانه وقرّبته فتخمد نار الفتنة بهذا الزواج المبارك وتهنأ المملكة كلها، ويهنأ سيدنا الملك فيسعد بالحب والملك معا." تحدّث الوزير والملك ينصت ويدهش، وقد أعجبه تدبير وزيره الحكيم، فهتف يقول:" نعم الرأي ما قلت..." ثم ذهب وأتمّ ما اعتزم وقرّر هو ووزيره، وصارت فتون بنت حمدان ملكة وزوجة للملك، فآنسته وسلّته وسرّته حتى نسي أنّه اغتمّ لفراق أحد يوما، وصار سعيدا فرحا، حتى نسي في خضم سعادته ابنه الأمير الوحيد وتلهى عن حبّه والعطف عليه.

لم يبالِ الأمير عليّ بما كان من والده من جفاء وانشغال عن صحبته، فقد كان سعيدا برفقة مهرته، متحسّرا لأجل فراق أمّه. ولأجل ذلك فإنّ أيّ علاقة ودّ لم تقم بينه وبين زوجة أبيه، فلا هو يحبّها ولا هو يكرهها.

أمّا فتون زوجة أبيه الملك فقد ناصبته أشدّ العداء وأبغضته كما يبغض أهل الظلمة النور،غير أنّها كتمت في قلبها غيظها طويلا، فلا تراها إلّا هاشّة باشّة مجاملة منافقة، تظهر الحبّ والمودّة وتبطن العداوة والبغضاء. وحدث أن حملت فتون حملها ففرحت وطربت لظنّها أنّها أمّ الأمير المنتظر والحاكم المؤجّل وقته حتى يظهر. وكانت كلّما رأت عليّ الأمير خفق قلبها وزاد حنقها وهي ترى أحلامها مبتورة مخذولة. فلمّا زاد بها الحنق والغضب والبغضاء فكّرت وقدّرت أن لا سبيل ليظهر ابنها المنتظر على الملك إلا متى

تخلّصت من الأمير الشابّ عليّ، فاهتدت إلى قتله مسموما وعمدت إلى دسّ السمّ الزعاف في طعامه. وكانت كلّما فعلت ذلك تكلّمت المهرة فحذّرت صاحبها عليّ وخبّرته بمكائد زوجة أبيه المتكرّرة وعرف الأمير عليّ أنّ صاحبته المهرة جنّيّة متخفّية، وعرف أنّ زوجة أبيه شريرة مخادعة مجرمة، فكان أن عاف ما تقدّم له من طعام وهدايا متعلّلا دائما بحجج كثيرة ومعتذرا...

فلمّا طال الأمر وتكرّر الاعتذار، خالج الشكّ قلب فتون وعقلها، فعمدت إلى مراقبة عليّ وصنعه مع مهرته فرأتهما ذات مرّة يتحدّثان وسمعت المهرة تقول بوضوح:" إيّاك أن تأمن لها يا عليّ يا حبيبي فإنّها تريد الخلاص منك لكي لا يكون للملك من بديل عن ابنها فيولّيه من بعده ملكا متوّجا." وحين سمعت فتون ذلك دهشت وخفق قلبها لعجب ما رأت، ثم توارت بالخفاء وانطلقت حتى لاقت حكيما عجوزا مجرّبا فقصّت عليه ما كان من أمرها...

"لا يكون ذلك إلّا للجنّ يا مولاتي وليست صاحبتك من الخيل بل من الجنّ!!" قال الحكيم وسكت.

"فكيف الخلاص منها يا سيّدي الحكيم؟" سألت الملكة فتون فقال الحكيم:" اعلمي أعزّك الله أنّ الجنّ متى سكنت بهيمة ما تركتها إلّا بموتها، وإنّي مشير عليك بحيلة فيها هناؤك وسلامتك. فاصنعي مثلما أشير باركك الله."

- أصنع يا سيّدي فقل
- كفّ عن الأكل والشرب غدا كأنّك صائمة حتى يصفرّ وجهك، فإذا ما دخل عليك الملك سأل عن حالك وأخذته الرأفة بك والخوف عليك فعندئذ قولي إنّني مريضة عليلة ولا شفاء لي إلا عند الحكيم، فحينها يرسلون في طلبي فآتيك وأتظاهر بفحصك وتقليبك، ثم أشير عليهم بضرورة ذبح المهرة وأزعم أن لا شفاء لك إلا متى أكلت كبدها. فحينها يفعلون فتنعمين بكبدها وتتخلّصين من شرّها.

عندما أشار الحكيم على فتون بذلك هنأت وسعدت وشكرته ثم مضت تسارع كي يتسنّى لها تنفيذ خطّتها الشريرة...

*****

في يوم الغد، جاء عليّ ليلاعب مهرته فوجدها حزينة كئيبة لا يسرّها لعب ولا يضحكها مزح ولا يسرّي عنها لهو فسألها عليّ محتارا:" ما بال رفيقة دربي وصديقتي ومنقذتي من الشرور ساهية كئيبة لا تحرّكها متع الحياة وزهوها؟"

"ما يصنع من أحاطت به المكائد والشرور حتى تكاد تهلكه وليس له حيلة غير الحزن؟" قالت المهرة الجنيّة.

"وأيّ شرّ يدركك وأنت فرس الأمير المدلّلة؟"

"فاعلم يا عليّا أنّ الملكة زوجة أبيك قد علمت أنّي منقذتك من شرورها بدوام تحذيري واطلاعك على خططها. فلمّا كنت إذن حجر عثرة وصدّا منيعا في وجه خطّتها، استعانت بحكيم لا يرجو لله وقارا ولا يخشى منه عقابا أو عذابا فأشار عليها بذبحي معتزما أن يحتال بذلك عند الملك فيقنعه أنّ كبدي هو دواء زوجته العليلة زورا المتمارضة كذبا..."

اغتاظ الأمير عليّ لما سمع كلامها وتكدّر حاله وتبدّل وجهه، وراح يفكّر في حيلة للنجاة بمهرته وقد امتلأ قلبه غيضا جرّاء صنيع زوجة أبيه وما تعتزم من الشرور. ثمّ ما لبث أن اهتدى لما فيه نجاتهما فقال:" لا ينشغلّن بالك بأمر اليوم والغد واتركي التدبير لمدبّر الأمر في السماوات والأرض فهو القادر على كلّ شيء ولن يعييه أن يجد لنا من ضيقنا مخرجا ومن عسرنا يسرا... وإنّي قد عزمت أمرا فيه بفضل الله نجاتنا فاهنئي ولا تحزني يا حبيبتي ورفيقة مرحي وكفاحي وأحزاني." فلمّا سمعت المهرة هذا الكلام هنأت وتبسّمت.

ثم إنّ الملكة قد صنعت كما أشار عليها الحكيم، فلمّا أقبل الملك ورأى وجهها متغيّرا، وبهاؤها ذابلا وجسدها ضعيفا، وكانت طريحة الفراش من أثر الجوع، طلب الحكيم المزوّر سريعا فأتاه حثيثا وفحص وقلّب تزييفا، ثم نطق بكلام الزور فقال: اعلم يا مولاي أنّ الأسقام نوعان، فأما الأول فهو ما أصاب بعض الجسد بالتلف فلذلك نصرف له دواءً يكون شرابا أو دهنا، ومنها ما يكون نقصا بسبب الجنّ فيترك في النفس أثرا وعلّة فلا يسدّ النقص ويذهب بعلّة النفس إلا نوع من الطعام. وإنّ مرض مليكتي عافاكم الله وشفاها من النوع الثاني، فلا

يذهب بعلّتها إلّا أكلها لكبد هذه المهرة السوداء الواقفة على أعتاب القصر فإنّها مسكونة بشيطان آذى مولاتي ولا يفكّ سحره وآذاه إلا أكلها كبد هذه البهيمة فمتى أكلتها استردّت عافيتها وفرّ الشيطان منكم فزعا فمرْ خدمك يا مولاي فيذبحونها وأقبل لمولاتي بكبد المهرة دون سواها من اللحم."

قال الملك وقد تكدّر حاله:" وكيف السبيل إلى ذلك يا حكيم وولدي الأمير اليتيم قد تعلّق قلبه بها فلا يرى في الأحبّة غيرها؟"

قال الحكيم:" فاعلم يا مولاي أنّها مهرة مسكونة بالجن، فخير لكم جميعا أن تتخلّصوا منها ولترضي ولدك الأمير بغيرها مما يختاره من صنوف الخيل الكثيرة، ألا ترى يا مولاي أنّ ملكتنا السابقة زوجتك قد قضت نحبها بسبب دخول هذه المهرة المشؤومة عليها؟"

وتذكّر الملك زوجته الأولى وما كان من أمرها فحزن وصدّق كلام الحكيم واستحسنه ثم أمر الخدم أن يتبعوه وتقدّم نحو ولده فسلّم عليه وقال:" اعلم يا ولدي أنّك أحبّ الناس إليّ بل إنّك أحبّ إليّ من نفسي التي بين جنبيّ، فاعلم إذن أنّ ما يسرّك يسرّني وما يحزنك يحزنني، غير أنّي قد علمت أنّ مهرتك هذه التي تحبّ بهيمة مشؤومة لا يرجى من حيازتها خير، وقد رأيت كيف فقدنا أمّك بسببها وهاهي زوجة أبيك توشك أن تلقى المصير نفسه. فمن أجل ذلك قد عزمت يا ولدي على ذبح هذه المهرة الشيطانة عسى أن يهبك الله خيرا منها ممّا تختاره من صنوف الخيل في المملكة كلّها فانظر ما ترى يا ولدي إني لك من الناصحين."

فلمّا رأى الأمير ما اعتزم أباه وعاين صنيع يداه علم أن لا مفرّ ولا نجاة إلا بحيلة، وأن لا مجال لتراجع الملك عمّا اعتزم وقرّر. فعند ذلك قال:" فاعلم يا والدي ومولاي أنّ الحقّ فيما اعتزمت وقرّرت والخير فيما ستفعله وإني أوافقك في كلّ ما تنوي، لذلك أستأذنك في أن أركب مهرتي لآخر مرّة فأجول وأنا على ظهرها جولة الوداع الأخير لما علمت من حبّي لها فأودّعها كما ودّعت أمي ثم أقبل إليك بها فتذبحها وتصنع ما شئت بلحمها."

قال الملك الحق فيما تقول يا ولدي فامضي بها مودّعا. فعندئذ لبس عليّ أفخر ثيابه وركب مهرته فسار بها يطوي المدى طيّا وبقي الجمع ينتظرون عودته وما هو بعائد أبدا...

*****

كانت تلك المهرة المسحورة تركض أسرع من أيّ فرس ودابّة، وكانت من أجل الجنيّة التي تسكنها تطوي المدى حتى لكأنّها تطير بجناحين. فكانت المسافات تتباعد بسرعة فائقة وما يقضيه الفرس في مسيرة يوم تقضيه هي في مسيرة ساعة من نهار. فلمّا مضى النهار وأقبل الليل، وصلت المهرة ومن فوقها الفارس الأمير بلادا مخضرّة مزهرة لم يعرفها أحد من قومه ولم تطأها قدم من أقدام الغرباء. فنزل الأمير عن فرسه وترجّل فرأى جزارا يتهيأ لإقفال حانوته فتقدّم نحوه وهو الجائع فسلّم وطلب أن يبيعه لحما مشويّا. فقال الجزّار:" أمّا اللحم نيّئا فنعم، وأمّا شيّه فتدبّر أمرك، فقد حل الليل بمجيء الغروب وعليّ أن أأفل كما تأفل الشمس بعد أن مضى النهار."

وافق عليّ على ذلك فاشترى لحما، ونظر حوله فرأى كرش الخروف ملقية في زاوية من زوايا الحانوت نظيفة جافة لا أمعاء حولها ولا دم فأخذه العجب وسأل عن سرّها، فقال الجزّار:" يبدو أنّك غريب عن هذه الديار. فاعلم إذن يا عابر السبيل أن الفقراء في هذا البلد قليلون لا يكادون يعرفون، فكان من عادتهم عندنا أن يعتمروا هذا الكرش الجافّ كما يعتمر الثريّ قلنسوّة من حرير. فعندئذ يعرفهم الأغنياء فيلقون إليهم من الفتات بعد أن يضحكوا سخرية من مظهرهم وقد اعتمروا كروشا على رؤوسهم."

استهجن عليّ هذا الأمر المهين، فليس من المروءة ولا الأخلاق أن نسخر من الفقراء نظير إحساننا لهم كما تعجّب من صنيع الفقراء بأنفسهم في هذا البلد العجيب، غير أنّه قد خطر بقلبه خاطر وبعقله فكرة فطلب من الجزار أن يبيعه قلنسوة الكرش الجافّة، فقال الجزار:" خذها مجانا بلا بيع، فإني أعالجها بالملح والدباغ كي لا تفسد من أجل أن أصنع معروفا للفقراء." فأخذها عليّ وانصرف شاكرا ثم انتحى مكانا قصيّا في ساحة واسعة مقفرة من ساحات المدينة وجمع حطبا ثم أوقد نارا فتدفّأ وشوى اللحم وأكل حتى اكتفى ونام والمهرة حوله تحرسه...

وحينما تنفّس الصباح أو كاد، قام الأمير من نومه وركب مهرته ثم تنهّد وقال:" آه لو أعرف الطريق إلى قصر سلطان هذه البلاد العجيبة!" وسمعت المهرة المسحورة قوله فأجابت:" أنا آخذك إليه." فتعجّب عليّ وسألها:" وكيف تعرفين الطريق إلى القصر ونحن لم نطأ هذه الأرض قبل الأمس قط؟"

"أنسيت أنّني جنيّة أعلم كثيرا ممّا يجهله الآدميون ولنا من الحيل والقدرات ما تحار فيه عقولكم؟!" قالت المهرة الجنيّة وانطلقت كالسّهم ناحية القصر، فنزل عليّ عن ظهرها واعتمر قلنسوّة الكرش المضحكة، فتبسّمت المهرة من فعله وعرفت مقصده، فطلبت منه أن ينزع عنه لباس الرفعة والفخامة والملك ففعل. وأخفت المهرة ذلك اللباس الجميل وأخرجت له في الحال ثوبا باليا متّسخا فوضعه على جلده وسوّاه. وعندئذ بكت المهرة قائلة:" هذا فراق بيني وبينك، عسى أن يجمعنا الله ثانية، خذ هذه الخصلة من شعري فاحرق منها شعرة واحدة متى احتجتني فعندئذ آتيك وأكون عندك وفي خدمتك من قبل أن يرتدّ طرفك، وامضي في خطّتك حتى النهاية ولا تيأس من المحاولة أبدا مهما كانت المعيقات." ثمّ ودّعته واختفت كما ينجلي الليل عن النهار...

وتقدّم عليّ ناحية القصر ونام في ساحته، وعندئذ تقدّم ناحيته أحد الحرّاس ونهره قائلا:" اذهب من هنا أيّها البائس الفقير فليس هنا مكانك."

"إنّما أطمع في لقاء سيّدي السلطان فيغنيني عن السؤال." قال عليّ.

- قلت اذهب. لم يبق إلا أن يدخل على السلطان أمثالك
- إذن أحدّث الناس بما قلت، فيطلبني السلطان، فلمّا ألاقيه أخبره بما قلت فيعاقبك بدلا منّي أو يعاقبنا كلانا. أمّا أنا فليس لي ما أخسره، رجل وضيع عاقبه سلطان البلاد أما أنت فتخسر...

عندما سمع الحارس هذا الكلام خاف وارتعش لأجل هيبة السلطان في نفسه، فأمر عليّا الأمير بالمكوث في الزاوية ريثما يخرج السلطان من خدر إقامته فيخبّره فينظر في أمره. فلمّا بان ضوء الصباح تقدّم الحارس نحو السلطان وخبّره بأمر عليّ وطلبه أن يلاقيه

فأعرض عنه وأمره بأن يصرفه. فانصرف عليّ ومكث على أعتاب القصر حتى مضى يومه الأول وهو كذلك. وجاء اليوم التالي فصنع مع الحارس مثل صنيعه بالأمس وتعجّب السلطان من إصراره غير أنه أعرض عن لقائه كدأب يومه الأول فمكث عليّ على أعتاب القصر ينتظر بصبره الأول. فلمّا كان اليوم الثالث وكان عليّ نائما على الأعتاب هزّت سمعه ضجة وجلبة وفتح عينيه فرأى جمعا يتقدّمهم السلطان يمضون تجاه حدائق القصر الغنّاء الجميلة فتبعهم وهو يتساءل عن سبب مضيّهم جميعا، جمعا غفيرا وقورا... فلمّا وصلوا تراءى لعليّ كوخا، وأمام الكوخ عجوز طريح.

"ها قد مات البستانيّ العجوز المسكين، وأنا أشهد أنّه كان رجلا صالحا وخادما ناصحا. فاحملوه وأكرموا مثواه كما يليق برجل خدوم طيّب أفنى حياته في خدمتنا." قال السلطان فأدّى جمع العسكر الحاضرين تحية له ثم تقدّموا ناحية العجوز وحملوه بإجلال إلى القصر وعليّ يتبعهم وهو متعجّب حتى دخلوا القصر فدخل وراءهم. ثم قام رجل فأبّنه وذكر خصاله ثم أخرجوه ليجهّزوه ويدفنوه. وخلا المكان فلم يبق غير عليّ والسلطان ووزيره وبعض الحرس. فحينئذ التفت السلطان نحو عليّ منتبها وسأله:" من أنت أيّها الفقير ذو الكرش على الرأس؟"

قال عليّ:" أنا ذلك الفقير الذي يطلب لقاءك منذ ثلاثة أيام حتى تغنيه عن الحاجة."

قال السلطان:" أمالا تطلب؟"

قال عليّ:" لا مال بل عمل يحفظ ماء وجهي ويقيني الحاجة والخصاصة."

وكان الوزير يسمع فأعجبه كلام عليّ، ورأى ملاحة في وجهه وظرفا فاستحسن ذلك وأحب أن يساعده فقال:" اجعله خليفة البستانيّ العجوز يا مولاي، فإنّ خير من استأجرت القويّ الأمين، وإنّي أرى بالشاب قوة ونضارة والنضارة تنبئ عن نقاء سريرة وأمانة..."

قال السلطان مخاطبا وزيره:" ليكن الأمر كما قلت."

فعندئذ تقدّم عليّ إلى يد السلطان فقبّلها وشكر صنيعه، وصار منذ ذلك الوقت بستانيّ السلطان وصار الكوخ مسكنه...

*****

ومرّت شهور عديدة عمل أثناءها عليّ الأمير بجدّ كبستاني حاذق، وخالط أهل القصر من حرس وجنود وحاشية بخلق حسن فأحبّوه، واجتباه السلطان فصار من جلّاسه كلّ ليلة لحلاوة حديثه وسماجته، ولِمَا لاحظه السلطان على الأمير من أدب وكياسة وظرف وتبحّر في علوم عديدة. وكان يُعرف في القصر بعليّ ذو الكرش على الرأس. وكان للسلطان سبع بنات، وكان من عادة السلاطين في تلك البلاد أن يزوّجن بناتهنّ في يوم واحد إذا ما بلغن سنّ الزواج، ومن عادتهم كذلك أن لا تتزوج الأميرات إلا بمن هو عامل في القصر أو أبناء من هو عامل باستثناء الحرس والعسكر وأبنائهم. فنظر السلطان في تلك الأيام إلى حاشيته وسألهم عن أبنائهم فلم يجد من أبناء الوزراء ورؤساء الدواوين غير ستّة من الشباب. فاحتار في أمر الشاب السابع الذي عليه أن يجده من أعوان القصر كي يزوّجه ابنته السابعة وأخذ يفكّر ثم قال لوزيره:" لِمَ لا يكون عليّ ذو الكرش على الرأس صهري السابع؟" فضحك الحاشية المقرّبون على استحياء. وقال الوزير:" إنّما هو رجل وضيع المنزلة يا مولاي لا يليق به مصاهرتكم."

قال السلطان:" فاعلم يا وزيرنا أن كلّ شيء زائل لا يزكو به الإنسان، فلا يعلي قدره مال أو مكانة ورثها بل العلم والأدب والخلق الحسن وقيم الشجاعة والمروءة هي التي تعلي قدر الإنسان بين الأنام. وكما قال الشاعر:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك محموده عن النسب

إنّ الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي"

فلمّا انتهى السلطان من مقالته أعجب القوم بفصاحته، وأمر أولياء الشباب الستّة أن يجهّزوا أبناءهم للعرس والفرح، وأرسل في طلب عليّ ذو الكرش على الرأس وأخبره بما قرّر بشأنه من أمر تزويجه بابنته الأميرة الصغرى وأمر خدمه أن يجهّزوه للعرس والفرح

ففعلوا. وجاء يوم العرس فأضاء وجه عليّ البستاني كأنّه البدر. فأخذ من حضر ينظر ويعجب ويقول في نفسه كأنّ هذا أمير أو ملك كريم وقد أحسن الملك إذ رفع قدره وقرّبه.

*****

مضت أيام سبع قضاها عليّ في خدر ومقام كريم من مقامات القصر مع عروسه الأميرة. فلمّا انقضت تلك الأيام القليلة ناداه السلطان وقال له:" ارجع إلى ما كنت فيه، فليس من العدل أن أفردك في القصر عندي بالقرب منّي دونا عن أصهاري الستة، وإن لكلّ أجل كتاب، وإنه ليس خير للمرء من المكوث في مقامه فاذهب واسكن مع زوجك حدائق القصر واعمل مثلما كنت تعمل ولتصنع هي مثلما تصنع النساء مع أزواجهنّ فليس لكما خادمة تريحها أو تحمل الأعباء عنها."

فلمّا انتهى السلطان من مقالته قال عليّ البستاني:" سمعا وطاعة يا مولاي." ثم مضى فاعتمر قبعة الكرش وانطلق بزوجته الأميرة إلى الحدائق السلطانية الغنّاء...

ومضت أيام طويلة مديدة كان خلالها سكان القصر من حاشية وخدم وحرس يعجبون تارة ويسخرون تارة من عليّ ذو الكرش على الرأس كيف أكرمه الله بزواجه من أميرة ذات حسن ودلال، وخلق ومال. وكانت الأميرات الستّ يسخرن من أختهنّ وحظّها الذي أوقعها في هذا الزواج الخائب من بستانيّ بائس. وكنّ أحيانا أخرى يشفقن عليها ويتحسّرن لأجل ما وقع لها. وكانت الأميرة الصغيرة وزوجها يقابلان كلّ ذلك بصبر ومسامحة وتجاهل كي يتمكّنا من العيش في سعادة داخل ذلك البيت الصغير من القشّ...

فلمّا كانت إحدى الليالي من ليالي الصيف الحارّ، استدعى السلطان أصهاره السبعة وطلب إليهم أن يجلبوا له تفاحا برائحة زكيّة يفوح وينعش الروح، فقالوا سمعا وطاعة يا سلطان الزمان. بينما كانوا في الأصل حائرين، وأخذ الستة يتغامزون ويضحكون من عليّ ذو الكرش ويتساءلون في أنفسهم كيف سيصنع هذا البائس مع أمر السلطان.

من فجر يوم غد ركب الأصهار الستة جيدهم وتهيّئوا للانطلاق إذ بدا لهم عليّ ذو الكرش على الرأس راكبا حمارا قصيرا يكاد يفلت من تحت ساقيه فيفرّ هاربا أو يخرّ باركا. فأخذوا

يضحكون منه سخرية حتى كادوا ينقلبون من على ظهور أحصنتهم. وقال كبيرهم:" ما تراك تصنع بهذا الحمار المسكين الذي عذّبته؟" وقال آخر ساخرا:" لعلّك تطمع أن يخدمك الحظ فتنال تفاحا يفوح وينعش الروح برحلة بائسة تصنعها عبثا مع حمارك الهزيل؟"

"عليّ أن أحاول جهدي على كلّ حال كي أنجو من غضب السلطان إذ لا أطيع أمره." قال عليّ فضحك الأصهار الستة وتركوه ومضوا يطوون المدى طيّا...

أمّا علي، فقد سار بطيئا ينتظر أن يبتعد عن القصر فلا يراه أحد. ثم أخذ ببعض شعيرات مهرته وأحرقها. وما هي إلا لحظة حتى ظهرت مهرته الجميلة أمامه، وقالت:" السلام على سيدي وحبيبي، ما تطلب فنجلبه وما ترجو فنحقّقه؟"

قال عليّ:" أطلب تفاحا يفوح وينعش الروح."

"هذا صعب وثمين ويلزمنا فيه تمكين، لكن لا تكن من اليائسين." قالت المهرة الجنية وأمرته أن يربط الحمار القصير مكانه، وأن يركب ظهرها ففعل عليّ. ثمّ انطلقت المهرة العجيبة تطوي المدى طيّا وكانت الأرض من تحتها كأنّها سراب من فرط سرعتها حتى لكأنّها تطير. وتمايز الطريق بين الغابات والأرض السهلة والأرض الصخريّة حتى وصلا مضيقا بين جبلين. فعندها وقفت المهرة الجنية وطلبت لعليّ الفارس أن يترجّل فترجّل. وسارا سويّا في ذلك المسار الضيّق...

قالت المهرة الجنيّة:" يتعيّن عليك أن تكون حذرا فأنت تدخل أرضا تملكها الجنيات حرسها الثعابين والحيّات." ثم ناولته سيفا ذهبيا يلمع، فأخذه ومضى وهي إلى جانبه. وفجأة ظهرت حيات ثلاث تتراقص ساعية نحوه فتقدّم وقتلها بسيفه. وعندئذ ظهرت له حيات وثعابين كثيرة أحاطت به وحاصرته مشكّلة دائرة ففزع منها وتوجّس خوفا فقالت المهرة الجنيّة:" تجلّد ولا تخف واقتلها كلّها." ثم قفزت بعيدا عنه تاركة إياه وحده، فقال في نفسه لا مناص من المواجهة ولا ينفعني خوفي ورهبتي بشيء. ثم تقدّم نحوها سريعا وأخذ يضرب بسيفه الذهبيّ الثعابين والحيات ثم يلتفت ليقضي على الأفاعي الأخرى وظلّ على ذلك الحال حتى قضى عليها جميعا. وبينما هو كذلك وقد ظنّ أنّه استراح منها إذ هاجت الثعابين من تحته

وظهر منها عدد كبير وقد لامس بعضها ساقيه فانقلب سريعا يضربها بسيفه الذهبيّ دون هوادة حتى قضى عليها جميعا. وفي تلك اللحظة ذاتها انقلبت المهرة امرأة بارعة الجمال وصفّقت فرحا بانتصاره. وقالت:" أحسنت، الآن نجوت في اختبارك الأول لكن احذر فيما يأتي فلا تخف ولا تجزع مهما رأيت. تعجّب عليّ من انقلاب مهرته امرأة جميلة غير أنّها لم تدع له مجالا للسؤال بل أمرته بالتقدّم فتقدّم. ومضيا في طريقهما الوعر فاكتنفتهما الصخور والأرض الصخريّة. ثم ظهرت أسود وفهود وحيوانات كثيرة ففزع عليّ وهمّ بمهاجمتها، غير أنّ المرأة الجنيّة صدّته ووضعت يدها على صدره فهدأت خوالجه واطمأنّ متذكّرا وصيّتها بعدم الجزع... ثم اختفت تلك الحيوانات فجأة وظهرت امرأة زرقاء العينين على رأسها تاج الملوك تجلس على كرسيّ من نار.

"مرحبا يا سهرجانة. أراك قد أقبلت بعد غيبة ومعك غريب من الإنس" قالت المرأة المتوجة، فتقدّمت صاحبة عليّ من الجنّ وقبّلت الأرض بين يدي الملكة وقالت:" لبيك وسعديك والخير بين يديك يا مولاتي."

"لم يكفك خطأك الأول حتى أقبلت علينا بالثاني. أما كنت تعلمين أنّ أرضنا ممنوعة عن الإنس؟ فكيف إذن تصحبين هذا الإنسيّ وتقبلين به إلينا؟ أما تخشين أن تحرقي وإياه حرقا بنار غضبي؟" قالت الملكة الجنيّة فارتعدت فرائص عليّ، وكان من قبل مندهشا مما يرى ويسمع، غير أنّ الدهشة انقلبت فزعا شديدا. وقالت الجنية المهرة:" ما كان ليخفى عليّ ذلك الأمر يا مولاتي ولكني نظرت فرأيته إنسيّا طيّبا لم يصنع معي غير الإحسان وأنا على صورتي تلك من صور الحيوان. وكان في ضيق فرأيت أن أساعده وطمعت في كرمك ومعاونتك لي.." فلمّا سمعت الملكة الجنيّة ذلك بدا عليها الزهو فقالت:" ما دمت ترضين أخلاقه وصنيعه وتجزمين أنّه لم يأت من أجل شرّ فليطلب ما يشاء ونحن نعطيه إن كان في مقدورنا أن نعطي." ثم نظرت نحو عليّ وأضافت:" تقدّم أيّها الغريب، سل تعط." فعندئذ تقدّم عليّ وقال:" أريد تفاحا يفوح وينعش الروح."

"ما ذلك بالأمر الهيّن وإنّه عندنا جائزة وغنيمة نعطيها لمن يفلح. لكن امض إلى رأس ذاك الجبل فاقطف منه ما شئت ولا تخش شيئا مما ترى ولا تستفزّهم بسيفك فيحرقوك، فإنما هم

خدمي ويأتمرون بأمري.." فلمّا سمع عليّ ذلك طرب وفرح وشكر الملكة الجنية ومضى سريعا يصّعد الجبل بعزم وهمّة وكانت الأسود والفهود والحيوانات الضارية تحوم حوله وتتمسّح بساقيه فيدركه حرّ كاللهيب فعرف أنّما هي خلق من الجنّ تتّخذ من الحيوانات صورا وهميّة فلم يفزع ولم يستفزّها كي لا تؤذيه كما أمرته ملكتهم الناريّة. وظلّ على تلك الحال حتى أدرك قمم الجبل، فاكتنفته رائحة زكيّة شذيّة أطيب من رائحة الورود والعطور والمسك والعنبر، واستشعر خفّة وانتعاشا ولذّة وسعادة تملأ نفسه وتغلب على روحه، فعرف أنّما هي رائحة التفاح الذي يفوح وينعش الروح. فتهيّأ وأخرج كيسه وتقدّم ناحية أشجار بهيّة المنظر بديعة الخضرة، تئطّ بثمر أحمر يكاد يضيء كحبّ الرمان. فعرف أنّه التفاح فجمع منه ما قدر عليه حتى ثقل كيسه الكبير ولم يقدر على حمله. فنادى في الآفاق مهرته فأقبلت إليه سريعا، فركب ظهرها والكيس قدّامه وانطلقت هي سريعا تطوي المدى طيّا...

فلمّا كان وقت العصر وجد على الطريق أصهار السلطان تمشي بهم جيادهم فأمر مهرته بأن تمشي مثل الجياد ففعلت حتى صار بجانبهم. فألقى عليهم التحيّة وسألهم عن شأنهم فأجابوه ولم يعرفوه لأنّ لباسه من حرير وعليه هيبة النبلاء وعلى وجهه لثام يخفي ملامحه. قالوا:" ابتلينا أيّها العزيز بسلطان يطلب غريب الأمور، وقد أمرنا أن نأتيه بتفاح يفوح وينعش الروح، فمضينا في طريقنا لا نهاب ولا نجزع إلى أن أصابنا الإعياء وهدّنا الوهن ولم نظفر إلا بهذا الشيء الذي نخفيه في مخالنا وفي ظننا أنّه تفاح." ثم أطلعوه عمّا يخفونه فإذا هو حنظل بغيض. فاعتراه الضحك وما استطاع أن يملك نفسه.

قالوا:" فيم ضحكك؟ أتتّخذنا هزوًا وقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ولقينا من الأهوال ما لقينا وما كان الربّ فيه شاهدا علينا؟"

قال:" حاشى لله أن أهزأ من الرجال عسى أن يكونوا خيرا مني ولكنكم قوم تجهلون، ولسوء عاقبة لا تقدّرون. إنّما جئتم به هو الحنظل، وإنّ السلطان سيرفضه، ويتّهمكم بالسخرية منه فيعمد إلى عقابكم وحسابكم..."

فلمّا سمعوا ما أنكروا ارتجفوا وعمّهم الخوف فهتفوا سريعا:" فما الحلّ إذن للخروج من هذه الورطة الشنيعة؟"

قال:" أمّا وقد سألتموني فالحلّ عندي وإني ناصح لكم فانظروا ها هو التفاح الذي يفوح وينعش الروح عندي في مخلاتي فإن شئتم بعتكموه.."

ثم أخرج من مخلاته حبّة ورفعها بين أصابعه عاليا كي يرونها. فلما رأينها أكبرنها وهتفوا بابتهاج:" هذه والله غايتنا، فكم تطلب لقاء ما جلبت معك، فإنّنا والله دافعون لك كلّ ما تطلب..."

قال عليّ:" أما والله إني لا أطلب مالا، فإنه عرض زائل لا يدوم. غير أنّي أبتغي منكم تذكارا يدوم كلما نظرت إليه في خلواتي."

قالوا:" لك ما تريد فاطلب نظير التفاح ما تشتهي."

قال:" أشتهي خواتمكم الملكيّة التي من الزمرّد!"

قالوا وقد فزعوا:" ولكنها خواتم ملكيّة خاصة لا يملكها سوانا وبها نعرف وتعرف مكانتنا!!"

"هذا ما أطلب ولا أرضى غيره ثمنا." قال ومضى مبتعدا، فنادوه هاتفين:" انتظر أيّها السيّد ولك ما تريد مقابل مخلاتك." ثم لحقوا به فسلّمهم المخلاة مقابل الخواتم. فألقوا ما في مخالهم من حنظل كريه وانطلقوا فرحين بما كسبوا. أمّا عليّ الفارس فقد جمع بعضا من حبات الحنظل وانطلق سريعا سالكا طريقا مختصرا حتى أدرك حماره وتعجّب من مكوثه دون أن يسرقه أحد ولم يدر أنّ الجنيّة أخفته وجعلته كائنا لا مرئيّا...

"هذا فراق بيني وبينك، اركب حمارك وامضي." قالت الجنيّة فشكرها وودّعها ثم ركب حماره ومضى متباطئا منتظرا لحاق الفرسان الستّة، ولم يمض من الوقت إلا نحو ساعة حتى أدركوه مستبشرين. فلمّا رأينه ضحكوا ساخرين وقالوا:" لعلّك قد أدركت نصيبا من التفاح في رحلتك يا عليّ؟"

قال متصنّعا البلاهة:" نعم بكلّ تأكيد." ثم أضاف وهو يخرج حبة حنظل من مخلاته ليريها لهم مفاخرا:" ها هو التفاح يا سادة، كي لا تهزؤوا من الرجال ثانية." فلمّا رأوا ذلك وسمعوا

مقالته غلبهم الضحك من بلاهته حتى كادوا يتساقطون من على ظهور خيولهم. وقال أحدهم مشفقا عليه:" إخف ما جلبت عن السلطان بل اخف نفسك كي لا تكون في مرمى غضبه، ويظنّك مستهزئا به فإنّما قد جلبت حنظلا مرّا لا تفاحا يفوح وتشتهيه الأنفس والروح." فعندئذ قال عليّ ذو الكرش على الرأس:" الحقّ معكم أنا نفسي شككت بالأمر ولم أقتنع أنّما هذا النبات العجيب تفاح يفوح ويردّ الروح ولكنّي لم أجد في رحلتي غيره." فضحكوا وتركوه ثم أسرعوا مستبشرين يزفون إلى السلطان خبر نجاحهم ويعرضون عليه هديّتهم، فاستبشر وسعد وشكرهم وجازاهم خير الجزاء. أمّا عليّ الفارس فقد مضى إلى عمله كبستانيّ، ولم يلق السلطان مطلقا. وظنّ السلطان فشله في المهمّة فلم يشأ أن يحرجه أو يكسر خاطره إذ ظنّه إنسانا بسيطا وضيعا لا تليق به مهمات الفرسان فتركه لشأنه...

بعد مدّة وجيزة أقبل على السلطان ضيف عزيز من سلطنة مجاورة، فاستقبله السلطان بحفاوة تليق بالملوك وأسكنه قصر الضيافة. ثم اجتمع به يوم الغد فحدّثه ضيفه عن الفيلة ودورها العظيم في الدفاع والحماية وكسب الحروب إذا ما أُتقن تدريبها، فقال السلطان:" وما الذي يمنعنا من كسب الفيلة واستعمالها في الحروب؟ عليّ أن أرسل فرقة من جندي فيأتونني بفيلة وأبنائها فأربيها وأدرّبها بينما هي تتكاثر." وكان الوزير حاضرا فقال:" وفيم تكلّف جندك يا مولاي بمهمة صعبة كهذه وأصهارك الستة فرسان نجحوا من قبل فيما هو أعسر؟ وصيد الفيلة حيّة يحتاج حيلة ومناورة لا قوة."

"صدقت يا وزير الزمان." قال الملك. ومن الغد جمع أصهاره وأوكل إليهم تلك المهمة العسيرة مبديا إعجابه وثقته بنجاحهم فيما كان ضيفه يرحل...

*****

ومن الغد انطلق أصهاره في رحلتهم وهم يتناجون خوفا مما حلّ بهم من مصائب جرّاء جنون هذا السلطان الذي سيقودهم إلى هلاكهم. وبينما هم سائرون إذ بهم يلحظون عليّ ذو الكرش على الرأس يقود حماره القصير الهزيل بعسر تابعا إياهم فانقلب فزعهم ضحكا وسخريّة، وقالوا:" إنّه عليّ ذو الكرش على الرأس من جديد. لعلّك تطمع في بلوغ مرام عسير بركوبك هذا الحمار الهزيل؟"

قال عليّ وهو يستشعر استهزاءهم:" قلت أجرّب حظي من جديد، فلا يليق بالمرء أن يكون يؤوسا بائسا مهما كانت العوائق!!"

"يعجبنا تفاؤلك، لكن ما نيل المطالب بالتمنّي يا عليّ فعد أدراجك واربح راحتك وخلو بالك إنّا لك من الناصحين." قالوا قبل أن يلكزوا جيادهم فركضت بهم مسرعة حتى اختفوا عن ناظريه. فلمّا اطمأنّ إلى غيابهم، أخرج من جيبه بعض الشعرات وأحرقها فظهرت في لمح البصر مهرته الجميلة وقالت:" لبيك سيدي وسعديك والخير بين يديك، ما تطلب؟ سل تعطى واطلب تجاب."

"أريد فيلة وصغارها تتبعني مأمورة لا هائجة ولا مذعورة!!" قال عليّ الفارس فقهقهت المهرة الجنيّة وقالت:" ذلك أمر سهل بسيط وهو مما نطيق." ثم انطلقت به حتى أدركوا الغابة، وألقى عليّ الفارس بصره فتراءت له فيلة عملاقة بدا معها كالقزم، فلمّا رأته غضبت وظنّته صيادا وانطلقت نحوه تريد دوسه ودهسه. فلمّا اقتربت نظرت المهرة الجنيّة في عينيها وتمتمت بكلام عجيب جعل الفيلة تتبع فارسها بخضوع وخنوع ففهم عليّ أنّها مسحورة، وقادتها المهرة الجنية بسحرها هي ودغافلها فساروا جميعا على الطريق. فلما اقترب من مدينة السلطان وجد على الطريق أصهاره في حزن وكرب شديد، فعرفهم ولم يعرفوه، لأنّ المهرة الجنيّة كانت تلبسه لباس الجلال والهيبة في كلّ مرة...

ألقى عليّ عليهم التحيّة ثم سألهم:" ما لي أراكم في ضيق وكرب شديد؟"

"لا تسألنا يا بن الطريق، فقد ابتلينا بسلطان غريب يطلب منّا كل أمر عجيب.."

ضحك عليّ وقال:" وماذا طلب منكم هذه المرّة؟"

همّوا أن يجيبوه إذ التفتوا ليروا تلك الهامة العملاقة التي تمشي خلفه مطمئنّة ففزعوا وهرب منهم خمسة. بينما مكث صاحبهم وقد أكل قلبه الرعب استحياء من الهروب لئلّا يُتّهم بالجبن.

"فيم فزعهم وهروبهم؟" سأل عليّ سادسهم فقال:" أمرنا الملك أن نجلب فيلة ومعها دغافل كهذه التي تتبعك، فمضينا إلى الغابة خائفين راجين مع ذلك أن نظفر بمطلوبنا حتى عثرنا

في قطيع من الفيلة فلما رآنا هاج وماج وطاردنا وأوغل في مطاردتنا حتى ارتعبنا وارتعبت جيادنا وكاد يقتلنا دهسا لولا أن تداركتنا رحمة فهربنا ناجين بأنفسنا بشقّ الأنفس. فلمّا رأى رفاقي هذه الفيلة تتبعك فزعوا من هول الصدمة متذكرين ما مرّ على رؤوسهم..."

قال عليّ:" الحمد لله على سلامتكم. نجوتم والله من خطر محقّق. فالفيلة مخلوقات عنيفة إذا هاجت واستبطنت شرّا، وإنما يتوجّب في صائدها معرفة ومهارة وكياسة وتدريبا لا تملكونه. وقد ظلمكم السلطان بطلبه هذا، فقد ألقى بكم إلى التهلكة. لكن ما ستصنعون معه وقد عجزتم عن تحقيق طلبه؟"

قال سادس الفرسان:" وما عسانا نصنع؟ ليتنا كنّا مثل عليّ ذو الكرش على الرأس، فهو رجل ضعيف محتقر لا يكلّفه السلطان بأيّ عمل من أعمال البطولة. أما نحن فسيرمينا السلطان للأسود تأكلنا."

ضحك عليّ الفارس وقال:" لا تجزع ولا تخف، فلديّ الحلّ."

"دلّني عليه حماك الله." قال الفارس السادس.

"ألا تراه أمامك؟" قال عليّ وأشار إلى الفيلة ودغافلها قبل أن يضيف:" أليست هذه فيلة؟ أليست هذه دغافلها؟"

- هل تعني أنّك تبيعها؟ سندفع كلّ ما تطلب من دراهم
- لا أريد دراهم مهما بلغ عددها. ألا تعرف عرفي في التجارة؟
- عرفتك أخيرا! أنت الذي لهفت خواتمنا الزبرجديّة الملكية النادرة. تلك التي لا يملكها غيرنا.
- نعم أنا هو...
- فماذا تطلب كثمن هذه المرة؟
- أطلب مثلما طلبت المرة السابقة
- لم يعد معنا تلك الخواتم فهي نادرة ولا ننالها إلا مرة واحدة من السلطان كتشريف لنا.

- ولكن بآذانكم أقراط نادرة لا يملكها سواكم.
- تلك أقراط الشرف وعلوّ المكانة ولا يملكها إلا المقرّبون من السلطان أبناء النبلاء. كيف لنا أن نهبك إياها ونعود دونها؟ تلك إهانة كبرى لو وصل الخبر إلى السلطان. لا يمكننا أن نفرّط فيها.
- جيّد إذن ليحتفظ كلّ منا بما لديه...

قال عليّ وانطلق مبتعدا فناداه الفارس السادس قائلا:" انتظر أيّها الرجل العجيب انتظر ولنتفاهم."

قال عليّ:" قلت ما عندي، الأولى لك أن تلحق بصحبك وتقنعهم بعرضي قبل أن تصيروا وليمة للأسود الجائعة، أو تهيموا في الصحراء هربا."

فلمّا سمع الفارس السادس ذلك القول وكز حصانه فركض مسرعا ملتحقا برفاقه حتى أدركهم فحدّثهم عن الرجل وما كان من خبره، وحاججهم حتى اقتنعوا فعادوا إليه مطأطئين رؤوسهم ثم نزعوا أقراطهم ووهبوه إياها قبل أن يقودوا الفيلة المسحورة ودغافلها فرحين بخلاصهم من المشكلة. أمّا عليّ الفارس فقد تباطأ حتى غابوا وابتعدوا، فانطلق إلى حماره المخفيّ، وهناك خلع عنه ثياب الملك وارتدى أسماله، ثم ودّع مهرته وركب حماره سائرا نحو القصر مخفيا نفسه عن السلطان وسط سخريّة أصهاره والحرس...

*****

بعد مرور نحو شهر عن الحادثة، تعرّضت أرض السلطان إلى هجوم من السلطنة المجاورة رغبة من سلطانها في ضم أراضيها إلى أرضه والسيطرة على خيراتها كما هو شائع في ذلك الزمان، وصار لزاما على السلطان أن يرسل جيشه إلى الحرب لمواجهة هذا العدو الغاصب. وكعادتهم، وجد أصهار السلطان أنفسهم في مأزق. فقد تعودوا رغد العيش وبهائه وليس من الهيّن عليهم تركه ليلقوا بأيديهم إلى الخسران والتهلكة. والحرب بلاء يدمي قلوب الرجال والنساء. لكنّهم خرجوا على كلّ حال طاعة لسلطانهم وامتثالا للواجب المقدّس في الذود عن الوطن. أما عليّ الفارس فقد نظروا تجاهه بازدراء وقالوا حاسدين وساخرين:"

ليتنا كنا وضيعين مثله لا تعنينا مهمات الفرسان وويلات الحروب والمكاره." ثم انطلقوا ملتحقين بالجيش. وانتظر عليّ ذهابهم واختفاءهم، ثم أحرق بعض الشعيرات مستدعيا مهرته العجيبة فأتته من قبل أن يرجع إليه طرفه وسألته حاجته، فأخبرها أنّه فارس بن ملك لا يليق به القعود كالجبناء وأنّ الواجب يحتّم عليه أن يحارب إلى جانب أهله دفاعا عن وطنه الجديد الذي احتضنه. فوافقته وقالت:" خيرا تفعل، سمعا وطاعة." ثم ألقت عليه لباس الفرسان وناولته سيفه الذهبيّ وأومأت له فركبها وانطلقت تطوي المدى طيّا إلى أرض المعركة الحاسمة...

وفي أرض المعركة أبلى العدوّ بلاءً حسنا وأثخن في الأرض مدميا الجيش جراحا، حتى فروا وتراجعوا والفرسان أصهار السلطان بينهم خائفين ومرتعبين يفرّون من الزحف سريعا. وتقدّم جيش العدو بالمقابل يكاد يدرك النصر ويبسط سيطرته لولا تدخّل عليّ الفارس في اللحظة المناسبة وظهوره المفاجئ الذي قلب موازين المعركة. وانسلّ داخل صفوف العدوّ يدكّهم بسيفه الذهبيّ ويطيح بهم وأثخن فيهم حتى لكأنّه رجل بألف. فلمّا رأى جيش البلد ذلك استعاد روحه القتالية وعافيته وعاد إلى مواقعه ليحارب رفقة ذلك الفارس القائد الذي لم يدروا من أين أتاهم وفيم نصرته لهم؟ وشوهد العدو يتراجع إلى الخلف موليا وهاربا معلنا الهزيمة. وصاح مستشار السلطان الحكيم الذي كان يرقب المعركة قائلا:" الفارس المجهول وسيفه الذهبيّ! إنّها علامة النصر التي دوّنها أجدادنا في نبوءاتهم!!" ووضعت الحرب أوزارها ورُدّ العدوان عن الأهالي الطيبين وهرع الجند إلى الفارس يحييونه ويمجّدونه ويشكرونه، وتهامس أصهار السلطان فيما بينهم قائلين هو ذا صاحبنا الذي حاز خواتمنا وأقراطنا التي لا يملكها سوانا!!" وجاء السلطان يطلبه ليتعرّف إليه ويكرمه. فعندئذ اختفى الفارس ولم يُعثر له على أثر...

*****

في صباح يوم غد ابتهجت المدينة كلّها بالنصر المؤزّر وعمّت الاحتفالات كلّ مكان في السلطنة، وضحكوا ولعبوا ورقصوا وشاركهم الجند والفرسان الستة احتفالهم غير أنّ السلطان لم يكن سعيدا كثيرا، فهو ما يزال يجهل ذلك الفارس الأسطوريّ الذي كان له

الدور البارز في النصر ولولاه لصار السلطان أسيرا أو عبدا. زد على ذلك توجّس السلطان من هذا الفارس الغريب الذي خبّره الحكيم بأنّه خليفته وأنّه السلطان القادم لتلك البلاد لا محالة، ذلك الذي ستزهر الأرض على يديه زعفرانا وتصير كلّ الأرض من حوله تحت ملكه وسيطرته فكان السلطان يخافه ويخشاه. كان يخاف من أن يصنع به شرّا أكبر من أعدائه فيقضي عليه تعجيلا بالملك، لذلك صار يسأل ويطلبه حثيثا. ثم اجتمع بأصهاره الستة وخبّرهم القضيّة وطلب أن يساعدوه. فطمأنوه قائلين:" لا ينشغلنّ بالك بالحذر من ذلك الفارس المجهول يا مولاي، فهو رحمة من السماء نزل حين احتجناه ثم اختفى ولن يكون خليفة لك على الملك إلا واحدا منّا ترضى مروءته وشجاعته وقد جرّبتنا من قبل وعرفت مقدار قوتنا ونجاحنا في غريب الأمور."

"فأين إذن خواتمكم من الزبرجد وأقراطكم النادرة؟ إنّي لا أراكم تضعونها." قال الحكيم مستشار السلطان فارتبكوا واهتزّوا من دواخلهم. وقال كبيرهم:" نحن لا نحملها معنا طوال الوقت، كنّا منشغلين بالحرب فتركناها في رحالنا!!" وقال آخر منهم:" ما دخل خواتمنا بقضيّة الفارس المجهول؟" قال الحكيم:" تلك الخواتم والأقراط هي علامة ظهور الفارس وملكه عليكم، متى فقدتموها فقدتم مكانتكم. كذلك تقول نبوءات الأجداد." فعندئذ امتقعت وجوههم، واغتاظ السلطان وسألهم غاضبا:" أين خواتم الزبرجد الملكيّة؟ وأين أقراط النبلاء؟ أحضروها إن كنتم بالفعل تخفونها في بيوتكم ورحالكم."

عمّهم الصمت ودكّ قلوبهم الخوف وارتعبوا وصاح السلطان فيهم:" هيّا تكلّموا، خبّروني حقيقتكم قبل أن أغضب فألقي بكم إلى الأسود الجائعة!!" فهتفوا باكين وتوسّلوا إليه أن يرحمهم، ثم قال أوسطهم وكان حاقدا على عليّ الفارس:" ليس من العدالة يا مولاي أن ندفع وحدنا ثمن خطإ اقترفناه مرغمين. ماذا عن عليّ ذو الكرش على الرأس، أليس صهركم أيضا ويجري عليه ما يجري علينا من التكليف والتشريف؟ لماذا لا تطلبه فتسأله عن فشله فيما أسندته إلينا من مهمات؟ وعن تخلّفه عن حربنا المقدّسة في الذود عن الوطن الذي آواه ووهبه أميرة زوجة له؟"

"ينمّ كلامك عن شماتة وحقد دفين. لكن لا بأس بما تقول، ساعة الحساب لا تستثني أحدا، وإن كان عليّ ليس من النبلاء مثلكم ولا هو بفارس، ولم نشرّفه بخواتم الزبرجد وأقراط الفخامة مثلكم." ثم أمر الحرس فأتوا إليه بعليّ يقودونه وقد تهيّئ لهذا اللقاء جيّدا وعرف أنّه آت لا محالة فأقبل على السلطان طائعا بلباس الفرسان وهيبة النبلاء حتى عجب كلّ من رآه. وقال السلطان بعدما ألقى عليّ عليه التحيّة ووقف بين يديه:" يزعم أصهاري أنّك لم تشارك في أيّ مهمة أمرت بها وأنّك تخلّفت عن حربنا المقدّسة في ردّ العدوان عن الوطن. وهذا يبدو حقيقيا فلم نرك إلا بستانيّا يقلّب الأرض ويقلّم الأشجار ويعتني بالورود!!"

"تلك مهمتي التي أوكلت لي يا سيّدي، فإنّما أنا رجل بسيط رفعني مولاي إلى مقام لست أهلا له فقنعت ورضيت، وامتثالا لأوامرك فقد أنجزت طائعا محبّا كلّ ما طلبته من أصهارك بصفتي صهرك وخادمك الأمين، وإني لست بجبان ولا ناكر معروف حتى أرى أهلي يقتّلون ولا أذود عنهم." قال عليّ.

"تزعم إذن أنّك ارتحلت لجلب التفاح الذي يفوح وينعش الروح؟ وأنّك ساهمت في اصطياد الفيلة وأنّك حاربت إلى جانب الجيش؟" قال السلطان بلهجة يمتزج فيها الاستغراب بالسخرية.

"لا أزعم يا مولاي، بل بالحقّ أنطق." قال عليّ.

"فما دليلك أيها الهزأة؟ أعني أيّها الفارس المغوار الذي لا يشقّ له غبار، وقد رأيناك تقوّد بالعسر حمارا قصيرا هزيلا؟" قال الصهر الأوسط فضحك الجمع سخريّة.

"فسلهم يا مولاي أين خواتمهم الزبرجديّة وأقراطهم النادرة من الماس؟" قال عليّ فاحمرّت وجوههم خجلا وخوفا وظنّوا أنّهم هالكين لا محالة وأنّ من احتقروه يخفي ما هو أكبر من وضاعته المزعومة...

"سألتهم فحاروا جوابا يا عليّ، فأجبني أنت إن كنت تعرف؟" قال السلطان.

"أنا أجيبك يا مولاي. لقد وهبوها للفارس الحقيقيّ الذي نجح في كلّ ما كلّفتنا به من مهمّات، وليس هذا الفارس إلا هذا البستانيّ الوضيع الماثل بين يديك الكريمتين!!" قال عليّ الفارس

مخرجا من طيات ثيابه خواتمهم وأقراطهم فبهت السلطان، وطأطأ الأصهار رؤوسهم خجلا وهزيمة. قال السلطان:" قصّ عليّ قصتك، وما صنعت من أمر أجهله؟." فقصّ عليّ قصته ولم يُخف منها شيئا. فعندئذ قام السلطان من مجلسه متأثّرا، وأخذ بيد عليّ وأجلسه عن يمينه قائلا:" الحمد لله الذي جعل خليفتي فارسا منّي لا يضمر بي شرّا ذلك الذي ستزهر الأرض علي يديه ويعمّ الخير والعدل أرجاء الأرض كلّها. فعندئذ قال حكيم القصر:" الحق الحق أقول لكم إنّ ملككم يأتي ماشيا على الأقدام غارقا جسده في أسمال بالية كواحد من الفقراء كذلك تقول النبوءة!!"

*****

في المساء حينما كان عليّ الفارس يتأمّل ضوء القمر ويرنو إلى بهاء السماء المرصّعة بالنجوم، ظهرت في الأرجاء امرأة باهرة الجمال مضيئة كالقمر وتقدّمت نحوه تمشي على استحياء فعرفها. إنّها تلك الجنيّة التي طالما اتّخذت صورة مهرة، فعندئذ أمسك يدها وقال:" هل يكفي أن أقول شكرا يا رفيقتي وحبيبتي وأنيستي؟"

"لا تقل شيئا، هنيئا لك بالنجاح. أمّا أنا فسأختفي ولن تراني بعد ذلك أبدا!!"

"فيم اختفاؤك وقد انتهت كلّ متاعبنا؟"

"الأمر كما قلت إنها النهاية، ولكلّ بداية يا حبيبي نهاية، وقد انتهى دوري معك وأنهيت مهمّتي فالآن يتوجّب عليّ التكفير عن خطئي..."

"فيم أخطأت يا زهرتي ولم تصنعِ معي إلا خيرا؟"

"ألا تذكر قول ملكة الجنّ، تلك التي وهبتنا التفاح حين قالت ألم يكفك خطأك الأول يا كهرمانة؟"

"بلى أذكر ونسيت أن أسألك وإلى الآن لا أدري ما يكون ذلك الخطأ"

"خطئي هو حبي لك يا عليّ لذلك تمثّلت صورة المهرة حتى يشتريني والدك وسرت معك طريقا طويلا أساعدك... لكن حبي لك خطيئة في عرفنا لا يصلحه غير حبّك لي."

"حبي لك؟ لكن..."

"لا تقل شيئا فقد أحببت الأميرة زوجتك وانتهى كلّ شيء كما هو مقدّر لك من قبل أن تولد.. أنا سعيدة من أجلك، سعيدة لأنّ كل ما أردته قد تحقّق لكن يتوجّب عليّ وداعك ولن تراني بعد هذه الليلة أبدا!!"

"لماذا لن أراك مجدّدا؟ لماذا لا تزورينني كما كنت تفعلين في كلّ مرة."

قال عليّ متأثّرا بلهجة تميل إلى الاستجداء والتوسّل، فقالت الجنيّة وقد ترقرقت دموع تحبسها رغما عنها:" لن تراني لأنّي سأحترق، سأتحوّل إلى بخار دافئ يفوح عبقا كلّما خالطه نسيم بارد، ذلك عرفنا يا حبيبي عليّ الفارس..." ثم احتضنته باكية بكاء حارّا قبل أن تختفي في الهواء، وشاهد عليّ سحابة دخان تطير ناحية القمر. وكان عليّ الفارس يتذكّرها فيبتسم أو تدمع عيناه كلّما داعبت بعض النسمات وجهه في أوقات الحرّ أو أيّام الصيف...

-انتهت- ليلة الثلاثين من ديسمبر 2022